الإجلال والإذلال في المقامة الصيميرية لبديع الزمان الهمذاني

د. باسم ناظم سليمان
مدرس
جامعة كركوك- كلية التربية

الملخص

دراستي بعنوان الإجلال والإذلال في المقامة الصيميرية لبديع الزمان الهمذاني وقد وظفتُ قسماً من مقولات السرد منهجاً في التحليل محاولاً تطبيق منهج نقدي حديث في تحليل نص نثري قديم تشيع فيه عناصر السرد وفنون بلاغية وصيغ تعبيرية رائعة .

اوضحت الدراسة عناصر السرد ووظيفتها في بنية المقامة ودور الثنائية الرئيسة – الإجلال والإذلال – في احداث المقامة وبنيتها . كما تبين الدراسة تأثير المادة في النفس البشرية وما تحدثه من اجلال الاغنياء وتوقيرهم واذلال الفقراء وتحقيرهم من قبل فئة دونية من اصناف المجتمع تتخذ الصداقة وسيلة للمنافع والمكاسب .

تتكون خطة البحث من مباحث عدة مثل بناء الحدث ، وأنماط المكان ووظيفته والزمان ، والسرد والمستوى التعبيري كالفنون البلاغية ، ومعجم النص ،وتركيب الجمل وابرز الصيغ .

أما أهم نتائج البحث فهو اعتماد الهمذاني البناء المتتابع في تصوير الحدث وتوظيف الامكنة التاريخية والمفتوحة والمغلقة التي اسهمت في تجسيد الإحداث وتطويرها كتوقير الصيمري لأصحابه وإكرامهم وسفره كسباً للمال وتنقله في البلدان وعقابه لاصحابه وقد وقعت الاحداث ضمن الزمن الطبيعي . كما وظف الهمذاني السرد الذاتي للتعبير عن قصة المقامة مصوراً معاناة الصيمري من خلال السجع والجناس والطباق والتشبيه والكناية والاستعارة وهي جواهر بلاغية يمكن ان تصبح امثلة تطبيقية ينهل منها طلبتنا في مختلف مراحلهم الدراسية لما تتسم به من دقة وجمال ، ومن الحقول الدلالية التي تجسدت في المقامة المعجم الاقتصادي ومعجم الطعام والشراب ، وتسود أفعال الماضي جو المقامة بينما تأتي الافعال المضارعة في المرتبة الثانية من حيث الغزارة .

درست عناصر السرد ضمن ثنائية الإجلال والإذلال فأصحاب الصيمري اجلوه ووقروه عندما كان مترفاً لكنهم تخلوا عنه واذلوه بعدما افتقر وتتجلى هذه الثنائية بوضوح في النسيج السردي لعناصر المقامة .

من المآخذ على المقامة الصيميرية خروج كاتبها – الهمذاني – عن المنهج الذي رسمه اذ اختفى الاسكندري بطل مقاماته عن الاحداث وحلّ مكانه الصيمري وهي شخصية واقعية .

النص

روى عيسى بن هشام قصة الصيمري ومالقيه من خيانة الأصدقاء فقال : (إنّ ممّا نزلَ بي مِن إخواني الذين اصطفيتهم وانتخبتهم وادّخرتهم للشدائد ما فيه عظةٌ وعبرةٌ ، وأدبٌ لمَن اعتبرَ واتّعظَ وتأدبَ وذلك إني قدمتُ من الصيمرة إلى مدينة السلامِ ومعي جِراب دنانير ومن الخرثي والآلةِ وغير ذلك مالا أحتاج معه إلى أحد فصحبتُ مِن أهل البيوتاتَ والكتّاب والتجّار(...) من أهل الثروةِ واليسارِ والجدةِ والعقار جماعة اخترتهم للصحبة وادّخرتهم للنكبةِ فلم نزلْ في صبوحٍ وغبوق نتغذّى بالجدايا الرّضع والطباهجات الفارسية والمدقّقات الإبراهيمية والقلايا المحرقة والكبَاب الرّشيدي والحملان وشرابنا نبيذ العسل وسماعُنا من المحسّناتِ الحذاق الموصافات في الآفاق ونقلنا اللوز المقشر والسكر والطبرزد وريحاننا الورد وبخورنا الند وكنتُ عندهم أعقل من عبد الله بن عباس وأظرف من أبي نواس

وأسخى من حاتم وأشجع من عمرو(...) لبذلي ومروءتي واتلاف ذخيرتي فلمّا خفّ المتاع وانحطّ الشراع وفرغ الجراب تبادرَ القومُ البابَ لمّا أحسّوا بالقصة وصارت في قلوبهم غصة ودعوني برصة وانبعثوا للفرار كرمية الشرار وأخذتهم الضجرة (...) وتفرّقوا يمنةً ويسرةً (...) واشتملت منهم عليّ العَبرة لا أُساوي بعرة وحيداً فريداً كالبوم الموسوم بالشّوم أقع وأقوم كأنّ الذي كنتُ فيه لم يكن وندمتُ حينَ لم تنفعني النّدامة فبُدّلتُ بالجمالِ وحشة وصارت بي طرشة أقبحُ من رهطةِ المنادي كأنّي راهب عُبّادي وقد ذهب المالُ وبقي الطنز وحصل بيدي ذنبُ العنز(...) ورفضني الندماء والإخوان القدماء لا يُرفع لي رأس ولاأُعَدّ من النّاس(...) أتردّدُ على الشّط كأني راعي البط امشي وأنا حافي وأتبعُ الفيافي(...) وقد تاهَ عقلي وتلاشت صحتي وفرغتْ صرّتي وفرّ غلامي وكثرت أحلامي (...) أظهرُ باللّيل وأخفى بالنّهار أشأَم من حفّار وأثقلُ من كراء الدار (...) قد حالفتني القلة وشملتني الذلة وخرجتُ من الملة (...) لا أجدُ لي ناصرا والإفلاس عندي أراهُ حاضرا (...) فخرجتُ أسيح كأني المسيح فجلتُ خراسان الخراب منها والعمران إلى كَرَمان وسجستان وجيلان الى طبرستان وإلى عُمان ، إلى السند والهند والنوبة والقبط واليمن والحجاز ومكة والطائف أجولُ البراري والقفار وأصطلي بالنار وآوي مع الحمار حتى اسودّت وجنتاي وتقلّصت خصيتاي فجمعتُ النوادر والأخبار والأسماء والفوائد والآثار وأشعار المتطرفين وسُخف الملهين وأسمار المتيّمين وأحكام المتفلسفين وحيل المشعوذين (...) واجتديتُ وتوسّلتُ وتكدّيتُ ومدحتُ وهاجيتُ حتى كسبتُ ثروةً من المال واتخذتُ من الصفائح الهندية والقُضُب اليمانية والدّروع السابرية (...) وأنواع الطُّرف واللطف والهدايا والتُحف مع حُسن الحال وكثرة المال فلما قدمتُ بغداد ووجد القومُ خبري وما رزقته في سفري سرّوا بمقدمي وصاروا بأجمعهم إليّ يشكون ما عندهم من الوحشة لفقدي وما نالهم لبعدي وشكوا شدّة الشوق ورزء التّوق وجعل كل واحد منهم يعتذر مّما فعل ويُظهر الندم على ما صنع فأوهمتهم أني صفحتُ عنهم ولم أُظهر لهم أثر الموجدة عليهم بما تقدّم فطابت نفوسُهم وسكنت جوارحهم وانصرفوا على ذلك وعادوا في اليوم الثاني فحبستهم عندي ووجهتُ وكيلي الى السوق فلم يدع شيئا تقدمتُ إليه بشرائه ألا أتى به وكانت لنا طباخة حاذقة فاتخذتْ عشرين لوناً من قلايا محرقات وألواناً من طباهجات ونوادر مُعدات وأكلنا وانتقلنا إلى مجلس الشراب فأحضرتُ لهم زهراء خندريسية ومعنيّات حسان محسنات فأخذوا في شأنهم وشربنا فمضى لنا أحسن يوم يكون وقد كنتُ استعددتُ لهم بعددهم خمسة عشر صنا من صنان الباذنجان كل صن بأربعة آذان واستأجر غلامي لكل واحد منهم حمالاً كل حمّال بدرهمين وعرّف الحمّالين منازل القوم وتقدّم اليهم بالموافاة بعشاء الآخرة وتقدمتُ إلى غلامي وكان داهية أنْ يدفعَ إلى قومي بالمن والرّطل (...) وأنا أُبخر بينَ ايديهم النّد والعود والعنبر فما مضتْ ساعة إلاّ وهم من السكر أموات لا يعقلون ووافانا غلمانهم عند غروب الشمس كل واحد منهم بداية أو حمار أو بغلة فعرّفتهم أنهم عندي الليلة بائتون فانصرفوا ووجهتُ إلى بلال المزيّن فأحضرته وقدمت إليه طعاماً فأكل وسقيته من الشراب القرطبلي فشرب حتى ثمل وجعلتُ في فيه دينارين أحمرين وقلتُ شأنك والقوم فحلق في ساعةٍ واحدةٍ خمس عشرة لحية فصار القومُ جُرداً مُرداً كأهل الجنة وجعلتُ لحية كل واحد منهم مصرورة في ثوبه ومعها رقعة مكتوبة فيها : من أضمرَ بصديقه الغدرَ وتركَ الوفاء كان هذا مكافأته والجزاء وجعلتها في جيبه وشددناهم في الصّنان (...) فلما أصبحوا رأوا في نفوسهم همّاً عظيما لا يخرجُ منهم تاجر إلى دكانه ولا كاتب إلى ديوانه ولا يظهر لإخوانه وإنما ذكرتُ هذا ونبّهتُ عليه ليؤخذ الحذر من أبناء الزمن ويُترك الثقة بالاخوان الأنذال السّفل) (١)

الشخصــيات :

ترتكز مقامات الهمذاني على شخصيتين رئيستين هما الرواي عيسى بن هشام ، والبطل أبو الفتح الاسكندري الذي يختفي في هذه المقامة ليشغل مكانه الصيمري وفي ذلك خروج عن المنهجية التي وضع أسسها بديع الزمان الهمذاني وهذا تنوع فني في مقاماته .

البطل :

بطل المقامة الصيمرية هوأبو العنبس الصيمري الذي روى الاحداث والوقائع ولا يظهر من الوجه الخارجي للبطل سوى الاسم وهو أبو العنبس الصيمري إنه شخص واقعي غير متخيّل عاش في العصر العباسي اسمه (محمد بن إسحاق بن إبراهيم الصيمري ، أبو العنبس . نديم المتوكل والمعتمد العباسيين . كان أديباً ظريفا ، عارفا بالنجوم ، شاعراً هجّاءً وهو من أهل الكوفة ، وقبره فيها ، ولي قضاء الصيمرة فنسب اليها ، له مناظرة مع البحتري وهجاه أكثر شعراء زمانه . من كتبه أحكام النجوم ، وأصل الأصول في خواص النجوم ، وفي الفلك والميقات ، والرّد على المنجمين وطوال اللحى والرد على المتطبيين وهندسة العقل وكتاب السحاقات والبغائين وكتاب الخصخصة . مجون وأخبار كندر بن جحدر . والثقلاء) (٢) .

ويتجلى الوجه الاجتماعي للبطل كالمهنة فهو أديب استطاع التعبير بأبلغ الأقوال للحصول على الأموال وذلك بالتوسّل والكدية والمدح والهجاء والأشعار والحيل والشعوذة ، أما الوجه النفسي لهذه الشخصية فمن سماتها الصبر ، التحدي ، والانتقام ، والكرم (فلم يكن أبو العنبس عاقلا فحسب ولا ظريفا فحسب ، بل كان أعقل من ابن عباس وأظرف من أبي نواس ولم يكن ذلك كل شيء بل ان اصحابه كانوا يتملقونه (...) فمعظم الصفات الحسنة التي خلق الله على الأرض كانت قد اجتمعت في أبي العنبس وإن تعديد الصفات الحميدة أو الذميمة في مقام واحد لمقتضى الحال من خصائص كتاب المقامة) (٣) .

إنّ الشخصيات الرئيسة في المقامة نامية متغيرة إذ فوجئ المتلقي بانقلاب الأحباء إلى أعداء والأخيار إلى أشرار فتغيرت شخصية الصيمري من حليم إلى مُنتقم لئيم بعدما تغير أصحابه إلى أشرار واحتقروه وأذلوه بعد ما كان موقرا مترفاً وصدق بن عباس رضي الله عنه عندما قال : (الناسُ لصاحب المال ألزمُ من الشعاع للشمس وهو عندهم أعذب من الماء وأرفع من السماء وأحلى من الشهد وأزكى من الورد خطؤه صواب وسيئاته حسنات وقوله مقبول يرفع مجلسه ولا يُمل حديثه والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب وأثقل من الرصاص لا يسلم عليه إن قدم ولا يُسئل عنه إن غاب إن حضر أردوه وإن غاب شتموه وإن غضب صفعوه مصافحته تنقض الوضوء وقراءته تقطع الصلاة) (٤) .

أما الشخصيات الثانوية فتمثلت في أصحاب الصيمري ومن ملامحهم الخارجية اللِّحى ، أما أسماؤهم فمجهولة فيما يتضح الوجه الاجتماعي لشخصياتهم كالمهنة فهم من أهل البيوتات والكتاب والتجار ومن أهل الثروة واليسار والجدة والعقار . ومن سماتهم النفسية الطمع ، والغدر ، والخيانة ، والنظرة النفعية إلى الغير والجري وراء الشهوات والمنافع الدنيوية والمصالح المادية .

ومن الشخصيات الثانوية التي جسدت قسما من الأحداث وكيل الصيمري ، والطباخة ، والحمالين ، والغلمان ، وبلال المزيّن .

لقد تولّى الخطاب رواة عدة فالراوي الأول بالنسبة للقارئ هو بديع الزمان الهمذاني والراوي الثاني هو المحقق محمد عبده وهما شخصيتان واقعيتان ، والراوي الثالث هو عيسى بن هشام وهو شخصية خيالية نُسجت من خيال الهمذاني والراوي الرابع هو بطل المقامة الصيمري وهو شخصية واقعية وعبر سلسلة الرواة يصل الينا الخطاب بأسلوب الهمذاني فكرة وتعبيرا.

الأحداث :

وقعت في المقامة أحداث عدة كقدوم الصيمري إلى بغداد وصحبته للكُتّاب والتّجار وفقره وسفره وعودته وعقابه لأصحابه في النهاية فالحدث متسلسل يتكون من بداية وعقدة ونهاية ، إن البناء المتتابع للحدث نمط قديم (يقوم على سرد الأحداث الواحد تلو الآخر مع وجود خيط رابط بينها) (٥) .

تمتاز النهاية في هذه المقامة بكونها مغلقة ختمت بالعقاب علماً ان مثل هذه النهايات تندر في مقامات بديع الزمان الهمذاني فغالبا ما تنتهي بكشف الإسكندري عن اسمه آخر المقامة .

كما وقعت أحداث رئيسة في المقامة مثل افتقار الصيمري ، وسفره ؛ كسبا للمال ، وعقابه لاصحابه . ويمكن استنباط أحداث عدة وفق الثنائيات الآتية :

إجلال --------- إذلال
توقير -------- تحقير
إقبال -------- إعراض
تجمع -------- تفرق
تبذير -------- توفير
إكرام --------- انتقام

لقد انقلبت أحداث المقامة من إجلال إلى إذلال ومن إقبال إلى أعراض بعدما أسرف الصيمري أمواله من أجل الأصدقاء والشهوات لكنه أدرك أخيراً ان الشهوة زائلة فاللذة تفنى والذّلّة تبقى ولا عزّة مع الفقر في مجتمع مادي تنعدم فيه القيم الانسانية . إنّ أصحابه وقّروه عندما كان غنياً وحقّروه بعد ما افتقر ويتجلى في وقائع المقامة أثر المال والطعام والشهوات في النفس البشرية وما يولده الفقر من تدهور اقتصادي وصحي ونفسي واجتماعي ، ومن الأخطاء الشائعة بين السذج الثقة بكل شخص والصحبة العاجلة له : (إن انقباضك من الناس يكسبك العداوة وإن انبساطك اليهم يكسبك صديق السوء وسوء الأصدقاء أضر من بغض الأعداء) (٦) . ومن الجدير بالذكر ان الهمذاني يعبر في هذه المقامة عن معاناة الادباء - وهو واحدٌ منهم – فبين لنا ان المثقفين من الادباء والعلماء يصعب عليهم العيش في مجتمع جاهل يسود فيه حثالات الناس من الجهلة النفعيين ولا يمكن فضحهم وكشفهم والسخرية منهم الا من قبل الادباء فعبث بهم بقلمه وبلاغته وجعلهم اضحوكة تصلح لكل زمان فأمثالهم كثيرون يوجدون في كل عصر .

المكان :

تنقسم الأمكنة الواردة في المقامة الصيمرية على الأنواع الآتية :

المكان التاريخي :

هو المكان الذي يذكرنا بالقرون الماضية فيمتد في عمق الزمان الغابر الذي وقعت فيه الأحداث وعاشت على أرضه الأجيال السالفة (والمكان كذلك لا يقتصر على كونه أبعاداً هندسية وحجوماً ولكنه فضلا عن ذلك نظام من العلاقات المجردة يستخرج من الأشياء المادية الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني أو الجهد الذهني المجرد وحس المكان حس أصيل وعميق في الوجدان البشري وخصوصاً إذا كان المكان هو وطن الألفة والانتماء) (٧) . ومن هذه الأماكن :

مدينة السلام بغداد :

عاصمة العباسيين وملتقى المفكرين من علماء وأدباء وفقهاء في العصر العباسي ويذكرنا المكان بالرخاء والازدهار والأمان وفيه صاحبَ الصيمري الأصدقاء فقضوا سويّة أمتع الأوقات وقد غادره الصيمري لجمع المال ثم عاد اليه ثانية ، إن هذه المدينة (أم الدنيا وسيّدة البلاد . قال ابن الأنباري : أصل بغداد للأعاجم ، والعرب تختلف في لفظها إذ لم يكن أصلها من كلامهم ولا اشتقاقها من لغاتهم ؛ قال بعض الأعاجم : تفسيره بستان رجل ، فباغ بستان وداد اسم رجل ، وبعضهم يقول : بَغ اسم للصنم فذُكر أنه أُهدي الى كسرى خَصِيٌّ من المشرق فأقطعه أياها وكان الخصي من عبّادة الأصنام ببلده فقال : بغ داد أي الصنم أعطاني ، وقيل : بغ هو البستان وداد أعطى وكان كسرى قد وهب لهذا الخصي هذا البستان فقال بغداد فسُمّيت به (...) وقال حمزة بن الحسن : بغداد اسم فارسي معرّب عن باغ داذويه لأن بعض رقعة مدينة المنصور كان باغاً لرجال من الفرس اسمه داذويه وبعضها أثر مدينة دارسة كان بعض ملوك الفرس اختطّها فاعتلّ فقالوا : هِلِدوه وروز أي خلّوها بسلام فحُكي ذلك للمنصور فقال : سمّيتها مدينة السلام) (٨) .
ويمكن حصر الأمكنة التاريخية التي سار فيها الصيمري مورفولوجيا كالآتي :

بغداد
خراسان
كرمان
سجستان
جيلان
طبرستان
عُمان
السند
الهند
النوبة
القبط
اليمن
الحجاز
مكة
الطائف

لقد اتخذ الصيمري هذه الأمكنة حيزاً للكسب واسترجاع الأموال التي أسرفها من خلال الحركة ، والسفر ، والسير ويُلاحظ تنوع هذه الأمكنة وكثرتها وتباعدها دلالة على عناء الصيمري لأجل الكسب والحصول على المال . فالانتقال بين هذه الاماكن غرضه كسب المال لاسترجاع القوة والهيبة .

المكان المفتوح :

هو المكان الذي يمكن الوصول اليه والسير فيه من قبل الجميع إذ أنه عام . صور هذا المكان معاناة الصيمري فقال عن رحلته : (أجول البراري والقفار وأصطلي بالنار) (٩) . فالبراري والقفار أماكن مفتوحة يمكن السير فيها والذهاب اليها بسهولة من قبل الجميع وقد جسدت هذه الامكنة عناء وشقاء اليصمري . ومن الأماكن المفتوحة السوق . قال الصيمري : (ووجهتُ وكيلي الى السوق فلم

يدع شيئاًُ تقدمتُ اليه بشرائه ألا أتى به) (١٠) . فوظيفة المكان هنا تهيئة الاجواء للاحداث حيث اتخذ السوق حيزاً للبيع والشراء استعداداً لاحداث جديدة يجسدها الصيمري .

المكان المغلق :

هو المكان الخاص الذي يصعب الوصول اليه من قبل الجميع . جسّد هذا المكان خجل أصحاب الصيمري بعد أن حلق لحاهم فلم يخرج منهم (تاجر إلى دكانه ولا كاتب إلى ديوانه ولا يظهر لاخوانه) (١١) . كما اتخذ الصيمري بيته مكانا لإغراء أصحابه وعقابهم بعدما (عادوا أليّ في اليوم الثاني فحبستهم عندي) (١٢) . لقد جعل الصيمري بيته مكاناً للإغراء والاستهزاء ، والثواب والعقاب ، والإكرام والإنتقام .

لقد تجسدت في الامكنة التاريخية والمفتوحة والمغلقة أحداث المقامة كلها وجرت خلالها الوقائع من التقاء وافتراق وصحبة وهجر وحب وكراهية وتلذذ بطعام وتوجع بانتقام ، وتطغى الاماكن التاريخية في بنية المقامة ؛ وذلك تجسيداً لشقاء الصيمري وتجواله في البلدان البعيدة استرجاعاً لأمواله المهدورة وفي تعدد الاماكن التاريخية دلالة على صعوبة الحصول على المال .

الزمان :

يستحيل وقوع حدث دون زمان ومكان فما هو الزمن (أهو تلك الدقائق والثواني التي نعيشها بالساعة أم هو شيء في داخلنا نحمله أينما نذهب وحينما نروح (...) وإحساس القارئ بالزمن يتوقف على ما يقدمه الكاتب إليه من أحداث عقلية وواقعية فكلما كانت القصة مليئة بالأحداث كلما زادت سرعة القراءة بينما تقل السرعة إذا كانت القصة خيالية) (١٣) .

إننا نحس بمرور الزمن من خلال التغيرات الحاصلة حولنا كمرور الفصول وإقبال الليل وطلوع الفجر وحدوث حركاتنا (والزمن ضابط الفعل وبه يتم وعلى نبضاته يسجل الحدث وقائعه) (١٤) .

من الأزمنة الطبيعية الواردة في المقامة اليوم فأصحاب الصيمري (عادوا في اليوم الثاني فحبستهم عندي) (١٥) لقد أُتخذ اليوم زمناً للزيارة وذُكرت الساعة في قول الصيمري : (فما مضت ساعة إلا وهم من السكر أموات) (١٦) . وُظفت الساعة زمنا لتأثير الخمرة في أصحاب الصميري . وأُتخذت الساعة زمنا لحلق اللحى والعقاب (فحلق في ساعة واحدة خمس عشرة لحية) (١٧) . لقد جرى خلال هذه الازمنة الثواب والعقاب وانقضت لحظات الفرح والسرور والندم .

السرد :

سرد الصيمري قصة المقامة سردا ذاتيا فهي تجربة شخصية كقوله : (إنّ ممّا نزل بي من إخواني) (١٨) وقوله : (فصحبتُ من أهل البيوتات والكتاب والتجار) (١٩) وقوله : (رفضني الندماء والاخوان القدماء) (٢٠) وقوله : (اجتديتُ وتوسلتُ وتكديتُ ومدحتُ وهاجيتُ حتى كسبتُ ثروة من المال) (٢١) .

يضفي ضمير المتكلم احساساً بواقعية الحدث ومن مزايا النفس البشرية حب الاطلاع على خفايا أفكار الآخرين عندما يسردون قصصهم الذاتية وتجاربهم الشخصية ولذلك عندما (يُروى كل شيء بصفةٍ الغائب يبدو المراقب غير مكترث كأنّ الأمر لا يعنيه البتة) (٢٢) . ويلاحظ في هذا السرد ان الشخصيات تتكلم وتتحاور مع القارئ وتخاطبه وتتحدث اليه وتبوح بمشاعرها بطلاقة وارتياح فلا تحجب عن المتلقي اسرارها وافكارها فيزداد التشويق وتستمر المتعة والمتابعة من لدن القارئ حباً في الاطلاع ورغبة في الكشف .

بلاغة الأسلوب :

تعد فنون البلاغة من الأغرض التعليمية في المقامة يتداولها طلبة العلم لأجل المعرفة والإطلاع على أسرار اللغة العربية ومواطن جمالها وأغراض أساليبها .

ترتكز المقامة من الناحية البلاغية على السجع وهو (تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد وهذا معنى قول السكاكي : الأسجاع في النــثر كالقــوافي في الشعر) (٢٣) وقد وظف لجماله وإيحائه في الحروب والمهاجاة لتأثيره الشديد في نفوس المستمعين (فكان أول سلاح يقذف به الخصم قبل الالتحام في المعركة إذ به يُطفأ هياج العدو وتخمد قوته وتفل شدته وتقل عزيمته) (٢٤) .

يتجلى السجع في سائر بنية المقامة فهو الفن الذي ترتكز عليه كقول الصيمري واصفا حاله بعد تخلي الأصحاب عنه : (ورفضني الندماء والإخوان القدماء لا يُرفع لي رأس ولا أُعدّ من الناس (...) أترددُ على الشط كأني راعي البط أمشي وأنا حافي وأتبع الفيافي (...) وقد تاهَ عقلي وتلاشت صحّتي وفرغتْ صرّتي وفرّ غلامي وكثرت أحلامي) (٢٥) .

يبرز السجع في الكلمات الآتية :

الندماء -------- القدماء
راس ---------- ناس
شط ----------- بط
حافي --------- فيافي
صحتي ------- صرّتي
غلامي ------- أحلامي

لقد تم توظيف السجع توظيفاً جميلاً يحمل نغماً متجانساً مريحاً في السمع عبر ثنائيات دالة على التوقير والتحقيز مصورة يأس الصيمري وتغير أصحابه وما اصابه من ذل .

أما الجناس غير التام أو ما يُسمى بجناس القلب فهو اختلاف الكلمتين (في ترتيب الحروف) (٢٦) . فورد في تصوير الصيمري لحالته وإذلاله من قبل أصــحابه و(اشتملت منهم عليّ العبِرة لا أُساوي بعرة) (٢٧) لقد جانس بين كلمتي : عبرة - بعرة وقوله : (ذهبَ المالُ وبقي الطّنز وحصلَ بيدي ذَنَبُ العنز) (٢٨) . فجانس فيه بين كلمتي : طنز – عنز . وقوله : (رفضني النّدماءُ والأخوانُ القدماء) (٢٩) إذ جانس بين كلمتي : الندماء – القدماء .

وأما الطباق فهو (الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة ويكون ذلك إما بلفظين من نوع واحد اسمين (...) أو فعلين) (٣٠) . ورد الطباق في قول الصيمري : (وتفرّقوا يمنةً ويُسرةً) (٣١) . وفي تصوير الصيمري لمعاناته وغربته فأصبحتُ (وحيدا فريداً كالبوم الموسوم بالشوم أقعُ وأقوم) (٣٢) وفي التعبير عن هروبه من الخلق (أظهرُ بالليل وأخفى بالنّهار أشأمُ من حفّار وأثقلُ من كِــراء الدار) (٣٣) . فهو يظهر بالليل حيث لا يراه احد ذليلاً ويختفي نهاراً بعيداً عن الاعين والالسن ويتضح في النص شدة معاناته في النهار .

يتجلى في النصوص الآنفة الذكر الطباق المعبر عن معاناة الصيمري ويأسه كما يتضح بين الكلمات الآتية :

يمنة ------ يسرة
أقـع ------ أقـوم
أظهر ------ اخفى
الليل------ النـهار

ومن الفنون البلاغية الواردة في المقامة التشبيه والغرض منه (الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى) (٣٤) . يتضح التشبيه في قول الصيمري عن أصــحابه : (وانبعثوا للفرار كرمية الشّرار)

(٣٥) . ووجه الشبه السرعة . وفي قوله عن نفسه بعد ما أصبح (كالبوم الموسوم بالشؤم) (٣٦) . ووجه الشبه سوء الطالع والوحدة .

أما الكناية فهي (لفظ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ كقولك (...) فلانة نؤوم الضحى أي مرفّهةٌ مخدومة غير محتاجة الى السعي بنفسها في إصلاح المهمات وذلك أن وقت الضحى وقت سعي نساء العرب في أمر المعاش) (٣٧) .لقد وظف الصيمري فنون البلاغة ليصور ما اصابه بعد ما افتقر وتغير اصحابه بأسلوب مشوق لتزداد المقامة متعةً وجمالاً هادفاً في الوقت نفسه الى الغرض التعليمي الذي يعد من إحدى أهداف المقامة ألا وهي تعليم طلبة العلم اللغة العربية وفنونها البلاغية .

صور الصيمري معاناته وفقره قائلا : (لا يُرفع لي رأس ولا أُعدّ من الناس) (٣٨) كناية عن ذلته وهوانه . وقال عن صعوبة الفقر والحاجة (أصطلي بالنار وآوي مع الحمار حتى اسودّت وجنتاي وتقلّصت خصيتاي) (٣٩) . تعبيرا عن معاناته في حر الصيف وبرد الشتاء . وتوحي هذه العبارة الجنسية الى الحرية والانحلال الخلقي الذي شاع في العصر العباسي وربما اراد الهمذاني السخرية والاضحاك فجمع الثنائيات الخاصة باعضاء الجسد التي تمثلت في كلمتين هما وجنتاي وخصيتاي .

معجم النص :

وردت في المقامة كلمات مشحونة بدلالات يمكن تقسيمها على الحقلين الآتيين :

١. المعجم الاقتصادي :

الثروة
اليسار
العقار
الإفلاس
المال
السوق
درهمين
دينارين

٢. معجم الطعام والشراب :

القلايا
الكباب
شراب
نبيذ
اللوز
السكر
المن

فالحقلان الدلاليان البارزان في المقامة هما الحقل الدلالي الاقتصادي والحقل الدلالي الخاص بالطعام والشراب وفيهما يتجلى تأثير المال والطعام في النفس البشرية وما يتولد بسببهما من عيوب اجتماعية ونفسية . كما يعبر الحقلان عن الوظيفة التعليمية للمقامات وما تحمله من معان ودلالات في فقه اللغة كألفاظ الاطعمة والمشويات والحلويات .

التركيب :

الأفعال : تطغىُ أفعال الماضي الدالة على التوقير والتحقير في بنية المقامة كما يتضح في الحقلين الآتيين :

١. **أفعال دالة على التوقير :**

صحبتُ
اخترتهم
ادّخرتهم
شكوا
طابت نفوسهم
سكنت جوارحهم
عادوا
أكلنا
أحضرتُ لهم
شربنا

٢. **أفعال دالة على التحقير :**

تبين هذه الأفعال حالة الصيمري السيئة وازدراؤه من قبل أصحابه :

خفّ المتاع
انحطّ الشراع
فرغ الجراب
أحسوا بالقصة
صارت في قلوبهم غصة
دعوني برصة
انبعثوا للشرار
أخذتهم الضجرة
تفرّقوا يمنة ويسرة
ندمتُ
ذهب المال
رفضني الندماء
تاه عقلي
تلاشت صحتي
فرغت صرتي
فرّ غلامي
كثرت أحلامي
حالفتني القلة
شملتني الذلة
خرجت من الملة
اسودّت وجنتاي
تقلّصت خصيتاي
اجتديتُ

توسّلتُ
تكدّيتُ

وتأتي ألافعال المضارعة في المرتبة الثانية من حيث الكثافة ومن هذه الأفعال الدالة على إجلال الصيمري :

نتغذى
يَعتذر
يشكون
يُظهر الندم

وأما الأفعال الدالة على الإذلال لبيان حال الصيمري فهي :

أظهر بالليل
أخفى بالنهار
أجول البراري
اصطلي بالنار
أقع
أقوم
آوي مع الحمار

الصيغ :

وردت في المقامة صيغة أفعل التفضيل الدالة على التوقير في الأمثال الآتية : (وكنتُ عندهم أعقل من عبد الله بن عباس وأظرفُ من أبي نواس وأسخى من حاتم وأشجع من عمرو) (٤٠) .
فالصيغ الدالة على إجلاله :

أعقلُ
أظرفُ
أسخى
أشجع

كما عبرت صيغة أفعل التفضيل عن إذلاله من قبل الأصحاب والأغراب بعد ما أصبح (أشأمُ من حقّار ، وأثقلُ من كِراءِ الدّار وأرعنُ من طِيطيءٍ القصّار وأحمق من داود العصّار) (٤١) . فالصيغ الدالة على إذلاله :

أشأم
أثقل
أرعن
أحمق

يلهث الجاهل وراء أصحاب الأموال فيسخر منه الأديب بالأقوال وقد جمع الصيمري بين جمال العبارة ، والعلم بالتجارة فأتت المقامة ساخرة من الاشخاص النفعيين وبيّنت فيهم اللؤم والجشع -

وعنهم جميعاً - عبر الكاتب الحقيقي بديع الزمان الهمذاني وبيّن معاناة الأدباء في مجتمع جاهل لم يثمن المفكرين من الأدباء والعلماء . لذلك يمكن ان اعد المقامة الصيمرية صرخة وجهها الهمذاني الى الاشخاص النفعيين الذين يتملقون للاغنياء ثم يتخلون عنهم في المحن فسخر منهم وسخرنا منهم وضحكنا من الاعماق لتغير اولئك الاشخاص الذين يكثر امثالهم في مجتمعنا حتى يومنا هذا .

الخاتمة

يتكون النسيج السردي في المقامة الصيمرية من الشخصيات والأحداث والمكان والزمان والسرد والمستوى البلاغي والمعجمي وتركيب الجمل .

جسّد أحداث المقامة البطل أبو العنبس الصيمري وأصحابه فقاموا بدور الشخصيات الرئيسة والنامية وتمثلت الحبكة في فقر الصيمري وسفره لأجل الكسب . وانتهت المقامة نهاية مغلقة تمثلت في العقاب .

وقعت الأحداث في أماكن تاريخية اتخذها البطل حيزاً للحصول على المال فتنوعت وتعددت الأمكنة مثل بغداد ، وخراسان ، وسجستان وعمان والهند واليمن ومكة كما جال الصيمري في أماكن مفتوحة عند افتقاره ويأسه كالبراري والقفار . ووقعت الأحداث خلال الزمن الطبيعي كاليوم والليل والساعة .

ووظف الصيمري وسيلة السرد الذاتي للتعبير عن قصة المقامة . وترتكز المقامة على السجع الذي يشيع في جو المقامة كما ورد الجناس والطباق والتشبيه والكناية إذ وُظفت هذه الفنون البلاغية لتصوير إجلال الصيمري وإذلاله ومن الحقول الدلالية التي تجلت المعجم الاقتصادي ومعجم الطعام والشراب فهما الحقلان الرئيسان للأحداث .

أما مضمون المقامة فهو تأثير المال في النفس البشرية ودوره الكبير في العلاقات الاجتماعية كالصداقة فأصحاب الصيمري لازموه وأجلوه عندما كان غنيا وأذلوه وتخلوا عنه بعد ما افتقر . كما احتوت المقامة اغراضاً تعليمية تهدف الى تعليم فقه اللغة العربية ودلالات الالفاظ كالاطعمة والحلويات والامثال الحكمية وهي من الاهداف البارزة في المقامة .

الهوامش

(١) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها : محمد عبده /٢٠٧-٢١٦ .
الصيمرة : ناحية بالبصرة . مدينة السلام : بغداد . الخرثي : الأثاث . الآلة : ما يحتاج اليه الانسان في الأعمال المنزلية . الجِدة : الغنى . الصبوح : ما حلب من اللبن صباحاً وما أصبح عندك من شراب . الغبوق : مثله في المساء . الطباهجة : ضرب من اللحم المشرح يصنع من البيض والبصل . المدققة : يقطع قطعاً صغاراً ويشوى . الرشيدي : نسبة الى الرشيد الخليفة كأنه كان يستجيد منه . الحملان : جمع حمل وهو الخروف . الطبرزد : سكر ابيض . الند : العنبر . عبد الله بن العباس : ابن عبد المطلب بن هاشم من أفقه أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) . عمرو : هو عمرو بن معد كرب الزبيدي . برصة : دويبة صغيرة .رهطة المنادي : رجل مشهور بالطرش القبيح .

الطنز : السخرية . ذنب العنز : قصير يابس لا يُنتفع به . الفيافي : جمع فيفاء وهو المكان المستوي . الصرة : ظرف الدراهم . الساكن بالدار بالكراء يثقل عليه تأديته . القضب : جمع قضيب وهو السيف . السابرية : درع دقيقة النسج . الزهراء : المشرقة . الخندريس : الخمر . الصن : السلة . القرطبلي : نسبة الى قرطبل موضع بالعراق لخمره شهرة. ثمل : سكر .

(٢) الأعلام : خير الدين الزركلي ٢٥٢/٦ .

(٣) فن المقامات في الأدب العربي : د. عبد الملك مرتاض /٣٤٠-٣٤١ .

(٤) المستطرف في كل فن مستظرف : شهاب الدين محمد بن احمد الأبشيهي ٤٢/٢-٤٣ .

(٥) البنية القصصية ومدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام : محمد رشيد ثابت /٣٨ .

(٦) الأدب الصغير والأدب الكبير : عبد الله بن المقفع /٢٠ .

(٧) جماليات المكان : اعتدال عثمان ، الأقلام ، بغداد ، العدد (٢) ، ١٩٨٦م / ٧٦-٧٧ .

(٨) معجم البلدان : ياقوت الحموي ، ٤٥٦/١ .

(٩) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها /٢١٢ .

(١٠) المصدر نفسه / ٢١٣ .

(١١) المصدر نفسه / ٢١٥ .

(١٢) المصدر نفسه / ٢١٣ .

(١٣) فكرة الزمن في الأدب الحديث : مرسي سعد الدين ، الفكر العربي ، بيروت ، العدد (١) ، ١٩٩٢م / ٧١-٧٢ .

(١٤) دراسات في القصة العربية الحديثة : د. محمد زغلول سلام / ١٣ .

(١٥) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها / ٢١٣ .

(١٦) المصدر نفسه / ٢١٤ .

(١٧) المصدر نفسه /٢١٤ .

(١٨) المصدر نفسه /٢٠٧ .

(١٩) المصدر نفسه / ٢٠٧ .

(٢٠) المصدر نفسه /٢١٠ .

(٢١) المصدر نفسه /٢١٢ .

(٢٢) بحوث في الرواية الجديدة : ميشال بوتور ، ترجمة فريد أنطونيوس/ ٦٤ .

(٢٣) الايضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي /٣٨٤ .

(٢٤) السجع وأطوار استعماله في أدب العرب : عبد الستار فوزي /٣٧ .

(٢٥) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها / ٢١٠-٢١١ .

(٢٦) الايضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني /٣٧٩ .

(٢٧) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها / ٢٠٩ .

(٢٨) المصدر نفسه /٢١٠ .

(٢٩) المصدر نفسه /٢١٠ .

(٣٠) الايضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني /٣٣٣ .

(٣١) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها / ٢٠٩ .

(٣٢) المصدر نفسه /٢٠٩ .

(٣٣) المصدر نفسه /٢١١ .

(٣٤) الايضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني /٢٠٩.

(٣٥) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها / ٢٠٩ .

(٣٦) المصدر نفسه /٢٠٩ .
(٣٧) الايضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني /٣١٣.
(٣٨) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها / ٢١٠ .
(٣٩) المصدر نفسه /٢١٢ .
(٤٠) المصدر نفسه /٢٠٨ .
(٤١) المصدر نفسه /٢١١ .

أرعن من الرعونة وهي الحمق . وطيطيء اسم رجل . والقصّار يقصر الثياب .

المصادر والمراجع

أولاً- الكتب :

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير : عبد الله بن المقفع (ت١٨٥هـ) ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٠م .
(٢) الأعلام : خير الدين الزركلي ، الجزء السادس ، ط٣ .
(٣) الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القرويني (ت٧٣٩هـ) ، تحقيق : محمد عبد القادر الفاضلي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١م .
(٤) بحوث في الرواية الجديدة : ميشال بوتور و ترجمة فريد أنطونيوس ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٢م .
(٥) البنية القصصية ومدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام : محمد رشيد ثابت ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٧٥م .
(٦) دراسات في القصة العربية الحديثة : د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية . دون تاريخ .
(٧) السجع وأطوار استعماله في أدب العرب : عبد الستار فوزي ، الشركة المركزية للطباعة ، بغداد ، ١٩٦٦م .
(٨) فن المقامات في الأدب العربي : د. عبد الملك مرتاض ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط٢ ، ١٩٨٨م .
(٩) المستطرف في كل فن مستظرف : شهاب الدين محمد بن احمد الأبشيهي (ت١٤٤٦هـ) ، الجزء الاول والثاني ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، دون تاريخ .
(١٠) معجم البلدان : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغدادي (ت١٢٢٩هـ) ، المجلد الاول ، دار صادر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٥م .
(١١) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها : محمد عبده المصري ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٣م .

ثانياً : الدوريات

(١) جماليات المكان : اعتدال عثمان ، الأقلام ، بغداد ، العدد(٢) ، ١٩٨٦م .
(٢) فكرة الزمن في الأدب الحديث : مرسي سعد الدين ، الفكر العربي ، بيروت ، العدد (١) ، ١٩٩٢م .

أحيانا	نادرا